

في المرحلة الأولى أصدر كتابه « تحرير المرأة » محاولا الظهور بمظهر المجتهد المجد؛ فبذل جهده للتدليل على ما زعمه من أن حجاب المرأة - كما هو سائد في المجتمعات الإسلامية - ليس من الإسلام ، وأن الدعوة إلى السفور ليس فيها ما يخالف الدين وأصوله العامة، فالحجاب - كما يدعى - أصل من أصول الأدب فحسب يلزم التمسك به ، ويؤكد ذلك بقوله: « إن الشريعة ليس فيها نص يوجب الحجاب على الطريقة المعهودة، فاستحسنوها وأخذوا بها وألبسوها لباس الدين، كسائر العادات الضارة التي تمكنت في الناس باسم الدين والدين منها براء»⁶لقد بحث الكاتب موضوعات الحجاب واستغلال المرأة بالشؤون العامة وتعدد الزوجات والطلاق، ووظف لما ذهب إليه آيات قرآنية توظيفا غير سليم؛ وتلخص منهجه في محاولة التوفيق بين الإسلام وبين مذاهب الغربيين في مرحلة أولى، وعندما جُوَبَ الكتاب وصاحبـه بمعارضة شديدة، انتقل الكاتب إلى مرحلة ثانية أكثر جراءة كشفت عن منطلقاته وأهدافـه. ففي كتابه اللاحق «المرأة الجديدة»([6]) ظهر أثر الفكر الغربي واضحـا؛ حيث دعا إلى التزام مناهج البحث الأوروبيـة الحديثة التي ترفض المسلمـات العقديـة السابقة، سواءً أكان مصدرـها الدين السماوي أم غيرـه، ولا تعترف إلا بما ثبت بدليل من تجربـة أو واقـع، وهو ما يدعـي «الأسلوب العلمـي» الذي يُنـسب إلى باحـثـي الاجتماع الأوروبيـين. ([7]) إن المنـهج العلمـي قد يكون محل اتفـاق وذلك في العـلوم التجـريبـية كالطـبيعـة والـرياـضـيات والـكـيمـيات والـفـيـزيـاء والـهـندـسـة والـطب... أما العـلوم الإنسـانية التي تبحث في أسرـار النـفـس البـشـرـية والـعـالـاقـات الـاجـتمـاعـية والـقيـم الـخـلـقـية، فلا يتـصورـ فيها وجود منـهج مـوـحد، بل إن علمـاء الغـرب أنفسـهم لم يـتفـقـوا على منـهج واحدـ لـدـرـاسـة الإنـسان وما يـتعلـقـ به من جـوانـب نـفـسـية وـفـكـرـية وـخـلـقـية. ولـعلـ منـ هـذـه الـدـرـاسـات ما هو مـسـخـ لـخـدـمة أـفـكـارـ وـنظـريـات رـبـما كانـ منـ أـولـي أـسـسـها مـحـارـبةـ الـدـينـ وـهـدمـ الـقـيـمـ وـالـمـبـادـئـ الـخـلـقـيةـ. ([8]) وهذا ما اتبـعـه قـاسـمـ أـمـينـ فـي مـنهـجـ الـمـلـتوـيـ، وأـرـادـ أنـ يـظـهـرـ بمـظـهـرـ مـجـدـ الـعـصـرـ الـذـي تـلـمـسـ مـكـمـنـ الدـاءـ وـاضـعـاـ يـدـهـ عـلـىـ الـجـرـحـ، وـلـمـ يـمـلـكـ أدـوـاتـ الـاسـتـبـاطـ الـتـي تـؤـهـلـهـ لـولـوجـ مـيدـانـ الـاجـتـهـادـ. ([9]) ولـذـلـكـ فإنـ ما أـورـدـهـ مـنـ أـدـلـةـ سـوـاءـ أـكـانـتـ نـصـوصـاـ قـرـآنـيـةـ أمـ تـارـيخـيـةـ أمـ عـقـلـيـةـ - تـعـاملـ مـعـهـ تـعـاماـلاـ مـوجـهاـ لـخـدـمةـ أـفـكـارـ الـمـسـبـقـةـ تـحـتـ ذـرـيـعـةـ فـتـحـ بـابـ الـاجـتـهـادـ لـلـنـهـوـضـ بـالـمـجـمـعـاتـ الـإـسـلـامـيـةـ. وـهـوـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ أـنـهـ كـانـ يـوـظـفـ بـعـضـ حـقـائـقـ الـوـاقـعـ فـيـ تـشـخـصـ أـحـوالـ الـأـمـةـ وـمـاـ تـعـانـيـهـ مـنـ أـمـراضـ - فـإـنـهـ لـاـ يـبـلـثـ أـنـ يـعـربـ عـنـ مـقـصـدـهـ؛ إـذـ يـدـعـوـ صـراـحةـ - وـفـيـ اـفـتـانـ شـدـيدـ - إـلـىـ الـأـخـذـ بـالـحـضـارـةـ الـغـرـبـيـةـ وـأـسـالـيـبـهـاـ. فـبـعـدـ أـنـ رـدـ سـبـبـ الإـعـجابـ الشـدـيدـ بـالـمـاضـيـ إـلـىـ الشـعـورـ بـالـضـعـفـ وـالـعـجـزـ، قـالـ: «ـ هـذـاـ هوـ الدـاءـ الـذـيـ يـلـزـمـ أـنـ نـبـادرـ إـلـىـ عـلاـجـهـ وـلـيـسـ لـهـ دـوـاءـ إـلـاـ أـنـنـاـ نـرـبـيـ أـلـاـدـنـاـ عـلـىـ أـنـ يـتـعـرـفـوـ عـلـىـ شـؤـونـ الـمـدـنـيـةـ الـغـرـبـيـةـ، وـيـقـفـوـ عـلـىـ أـصـوـلـهـاـ وـفـرـوعـهـاـ وـآـثـارـهـاـ. إـذـاـ أـتـيـ ذـلـكـ الـحـيـنـ - وـنـرـجـوـ أـلـاـ يـكـونـ بـعـيدـاـ - اـنـجـلتـ الـحـقـيـقـةـ أـمـمـ أـعـيـنـاـ سـاطـعـةـ سـطـوـعـ الـشـمـسـ وـعـرـفـنـاـ قـيـمـةـ الـتـمـدـنـ الـغـرـبـيـ وـتـيـقـنـاـ أـنـهـ مـنـ الـمـسـتـحـيلـ أـنـ يـتـمـ إـصـلاحـ مـاـ فـيـ أـحـوالـنـاـ إـذـاـ لـمـ يـكـنـ مـؤـسـساـ عـلـىـ الـعـلـومـ الـعـصـرـيـةـ الـحـدـيثـةـ، وـأـنـ أـحـوالـ الـإـنـسـانـ مـهـمـاـ اـخـتـلـفـ - مـادـيـةـ كـانـتـ أوـ أـدـيـبـةـ - خـاضـعـةـ لـسـلـطـةـ الـعـلـمـ؛ لـهـذـاـ نـرـىـ أـنـ الـأـمـمـ الـمـتـمـدـنـةـ - عـلـىـ اـخـلـافـهـ فـيـ الـجـنـسـ وـالـلـغـةـ وـالـوـطـنـ وـالـدـيـنـ - مـتـشـابـهـةـ تـشـابـهـاـ عـظـيـمـاـ فـيـ شـكـلـ حـكـومـتـهاـ وـإـدارـتـهاـ وـمـحـاكـمـهـاـ وـنـظـامـ عـائـلـهـاـ وـطـرـقـ تـربـيـتهاـ وـلـغـاتـهـاـ وـمـبـانـيـهـاـ وـطـرـقـهاـ، بـلـ فـيـ كـثـيرـ مـنـ الـعـادـاتـ الـبـسيـطـةـ كـالـمـلـبسـ وـالـتحـيـةـ وـالـأـكـلـ. وـحـمـلـنـاـ عـلـىـ أـنـ نـسـتـلـفـ الـأـنـظـارـ إـلـىـ الـمـرـأـةـ الـأـورـبـيـةـ». ([10]) إـنـ الـثـوـرـةـ الـتـيـ دـعـاـ إـلـيـهـ قـاسـمـ أـمـينـ لـمـ تـقـتـصـرـ عـلـىـ مـيدـانـ الـاجـتـهـادـ، بلـ شـمـلـتـ مـجاـلـاتـ كـثـيـرـةـ أـهـمـهـاـ الـأـدـبـ وـالـلـغـةـ؛ فـقـدـ كـانـ مـنـ الدـاعـيـنـ إـلـىـ كـاتـبـةـ الـآـدـبـ بـالـلـهـجـاتـ الـعـامـيـةـ، وـلـاـ يـخـفـيـ مـاـ فـيـ هـذـهـ الـدـعـوـةـ مـنـ مـحـارـبـةـ لـلـغـةـ الـقـرـآنـ الـتـيـ أـرـادـ لـأـصـحـابـهـ أـنـ يـنـسـلـخـوـ مـنـهـاـ كـمـاـ اـنـسـلـخـتـ الـأـمـمـ الـأـورـبـيـةـ الـحـدـيثـةـ عـنـ لـغـتـهـ الـأـمـ (ـ الـلـاتـيـنـيـةـ)ـ . وـمـحـارـبـةـ لـلـغـةـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ مـوقـفـ عـدـائـيـ ضـدـ إـلـسـلـامـ نـفـسـهـ؛ لـأـنـ الـوـسـلـيـةـ الـضـرـورـيـةـ لـفـهـمـ هـذـاـ الـدـيـنـ وـمـعـرـفـةـ أـحـكـامـهـ وـمـاـ اـرـتـبـطـ بـهـ مـنـ عـلـومـ، إـنـمـاـ هـيـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ الـفـصـيـحـةـ كـمـاـ نـزـلـ بـهـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ عـلـىـ خـاتـمـ الـأـنـبـيـاءـ عـلـيـهـ أـفـضـلـ الـصـلـةـ وـأـتـمـ التـسـلـيمـ.